

النزوع الأسطوري في القصيدة الجزائرية المعاصرة من خلال نماذج شعرية Myth in Contemporary Algerian Poetry Through Poetic Models.

د. زينب نسارك *

Nessark Zineb

جامعة عبد الرحمن ميرة - بجاية (الجزائر)

Abdelrahman Mira University of Bejaia (Algeria)

zineb.nessark@univ-bejaia.dz

تاريخ النشر: 2025/06/02

تاريخ القبول: 2025/05/09

تاريخ الإرسال: 2025/03/15

ملخص البحث

تسعى الدراسة إلى الوقوف على الأسطورة في القصيدة الجزائرية المعاصرة من خلال بعض النماذج الشعرية، وهذا بالتركيز على أهم الأساطير التي وظفها الشعراء واستعانوا بها للتعبير في بناء نصوصهم الشعرية، ولهذا فإن البحث ينطلق من الإشكالية التالية: ما هي أبعاد الأسطورة في القصيدة الجزائرية المعاصرة؟ وما هي أهم سماتها؟ إلى أي مدى ساهمت الأسطورة في تحديد أبعاد النص الشعري؟ وما هي أهم الأساطير التي توقف عندها الشاعر الجزائري؟ وقد توصل البحث إلى مجموعة من الاستنتاجات كان أهمها أن الأسطورة وسيلة تعبير غير مباشر عن آلام الشعراء وعن أحاسيسهم، وهي كذلك تعبير عن الحسرة والإحباط اليومي، ولهذا كانت أسطورة السندباد أهم الأساطير التي استعان بها الشاعر الجزائري، إضافة إلى أساطير أخرى كانت كلها بنيات نصية ذات دلالات كبيرة، فقد وعى الشاعر أهميتها في تشكيل أبعاد النصوص الشعرية.

الكلمات المفتاح: أسطورة، قصيدة جزائرية، شاعر جزائري، دراما.

Abstract :

This study seeks to examine the presence of myth in contemporary Algerian poetry by analyzing selected poetic samples. It focuses on the most significant myths employed by poets as expressive tools in the construction of their poetic texts. The research is driven by the following central questions:

1. What are the dimensions of myth in contemporary Algerian poetry, and what are its main features?
2. To what extent does mythology shape the poetic text? And which myths have Algerian poets most frequently drawn upon?

* د. زينب نسارك: zineb.nessark@univ-bejaia.dz

The study concludes with several findings, the most important of which is that myth represents an indirect mode of expressing poets' suffering and emotions. It also serves as a reflection of daily frustration and disillusionment. The Sinbad myth emerges as one of the most frequently utilized by Algerian poets.

Keywords : Legend, Algerian poem, Algerian poet, drama.



مقدمة:

وعى الشاعر الجزائري المعاصر مدى أهمية البناء الأسطوري في نصوصه الشعرية، وأدرك أن نجاحه في توظيف الأسطورة يتعلق بمدى قدرته على استلهاها بصورة فنية تتباعد عن المباشرة، وفي الوقت ذاته على تكييفها مع تجربته الحاضرة، ولهذا نجد أن الشعراء الجزائريين قد حذوا حذو شعراء المشرق الذين كانوا سباقين إلى توظيف الأسطورة، ولهذا فقد برزت الأسطورة في الشعر الجزائري بداية من شعراء السبعينات على يد بعض الشباب أمثال عبد العالي رزاق، أحمد حمدي، وأحلام مستغاني، وغيرهم.

كانت الأسطورة أداة فنية قوية لدى الشعراء، يعتمدون عليها في رسم ملامح شخصيتهم وفي رسم دراميتها ودرامية حياتهم اليومية وحياة الآخرين، خاصة الوطن الذي ينتمون إليه، ولهذا فقد حاول الشعراء وصف الواقع وتعريفه وإظهار دراميته من خلال الرجوع إلى الماضي. فقد أدرك الشاعر الجزائري أهمية الأسطورة في تفعيل تجربته الشعرية، وفي الهروب من انتكاسات الحاضر وأزماته، وانكساراته المتتالية، فهي الوسيلة المثلى للانتصار على خيباته والتغلب على فواجعه، فمن خلالها يصنع عالمه الخاص المنفتح على الحلم والتخييل، كما يتحرر من القيود التي يطررها المجتمع، فهي حل مثالي وجمالي للتخلص من حالة القلق والتعبير عن حالات الدراما التي يمر بها.

عُرفت الأسطورة بكونها نظاما مكثفا وغامضا، تتداخل فيها مجموعة من الظواهر التاريخية والميثولوجية والسحرية والخرافية، كما تختلف من شعب إلى آخر حسب معتقداته وأعرافه وتقاليده. ولهذا فإن توظيفها في الشعر مسألة في غاية الأهمية، فهي تشكل نظاما خاصا داخل بنية الخطاب الشعري المعاصر.

1-أسطورة السندباد في القصيدة الجزائرية:

ومن بين الرموز الأسطورية التي تأثر بها الشعراء الجزائريون رمز "السندباد"؛ الفتي المغامر والمستوحى من حكايات "ألف ليلة وليلة" الذي يخوض المغامرات المدهشة بما فيها من خيال ومشاق ومصاعب، ينطلق من بغداد ليعود إليها، وهو يواجه الجنيات وحوريات البحر في الجزر الثائية، ثم يعود غنيا ظافرا محملا بالذهب والغنائم، فأسطورة السندباد هي "رمز الاكتشاف والبحث عن عوالم الامتلاء والخصوبة، وألهمت الشعراء بوصفها المعادل الموضوعي لإشراقات رؤيوية، رؤيا البحث المنتظر لواقع هش ومتآكل"¹

ومن الشعراء الجزائريين الذين وظفوا أسطورة السندباد ورأوا فيها سبيلا للمغامرة والرحلة في سبيل تحقيق الذات والهروب من عالم الواقع إلى عالم آخر في سبيل البحث عن ذاتهم، الشاعر عثمان لوصيف الذي اعتبر نفسه سندباد زمانه إذ يقول:

أنا سندباد الشمس عمري عجائب
وفي كل يوم مرفئي بجزيرة
ثرت على الأمواج حبي ملاحا
وخضت مجاهيل البحار ولم أزل
أموت وأحيا في جهنم رغبتى²

يستخدم الشاعر التشبيه البليغ في تشبيه نفسه بالسندباد، ووجه الشبه بينها هو روح المغامرة وعدم الخوف من المجهول، وكذلك عدم الاستقرار على حال، فالغرض من التشبيه البليغ هو إيضاح المعنى وتأكيده، فالشاعر لا يجد مستقرا لحياته لأنه لم يصل إلى رغبته ومنتهاه، لهذا اختار السندباد ليكون رفيقا له لأن حياته كلها عجائب ومغامرات، إنه لا يكاد يحقق رغبته المحترقة يوما بعد يوم. لكنه يختلف عن السندباد الذي يعود من رحلاته غانما، بينما لم يصل الشاعر إلى رغبته ومنتهاه، فهو لا يشبهه إلا في عشق البحر والسفر، فالشاعر يظل دائما:

عاشقا كان ينادي
في أعاصير الزماد
ويعاني
من تباريح الحنان
إنه كالسندباد

يعشق البحر و يغويه الضياع³

فالضياع هو قدر الشاعر، وكذلك المعاناة؛ معاناة الحب والحنان، الذي لا يستقر عليهما، فالوحدة ملازمة للشاعر، ولهذا فهو يرى نفسه في صورة السندباد الذي لا يتعب في المسير بحثا عن أمل جديد وعن غد أفضل، وفي كونه رمزا للتنفيس عن نفسه والتعبير عن صراعاته الداخلية، ولهذا فهو يختار شخصية السندباد السحرية كي يعبر عن رغبته في الانطلاق بعيدا بحثا عن الحرية والاعتناق.

لقد تخيل الشاعر نفسه سندباد البحر، لأنه لا يخشى الأهوال والمخاطر في سبيل الحصول على مبتغاه، ولهذا فهو يصّر على التغلب على معاناته وعلى المضي قدما كي ينال ما يتمناه.

يستعير الشاعر أسطورة السندباد كلفة استعارية، يعبر من خلالها عن معاناته اليومية التي تتسم بالشعور بالضيق والرغبة في تحطّي اليوم للوصول إلى غد أفضل، وهذا ما يفسّر رأي "نور ثروب فراي" الذي يعتبر أنّ "أحد الأسباب، التي تجذب الشعراء إلى الأسطورة هي تقنية، فلغة الأسطورة لغة استعارية، لأن الأساطير تتناول في قسم كبير منها الآلهة، التي تتماشى مع ظواهر طبيعية أو اجتماعية".⁴

فالأسطورة تجعل النص الشعري نصا غنيا بالرموز وبالتعابير الإستعارية، فهي أداة فنية مهمة كونها تشكل نظاما خاصا داخل النص الشعري، ولأنها تشكل عالما مفتوحا على المدهش والخيال وعلى الدلالات المتعددة. لهذا نجدها تتكرر عند الشعراء الجزائريين المعاصرين الذين تأثروا بسمات الشعر الجديد الذي ينحو نحو الأساطير، خاصة أسطورة السندباد، فنجد الشاعر أحمد حمدي يلجأ إلى السندباد كي يساعده في تصوير حالته النفسية الناتجة وغير المستقرة، فيقول في قصيدته "تائه في مملكة القلق":

وبتية عبر البحر ركي
فإذا قلاعي
تخب في غيش الضباب
تترنح السكرى
و ترتاد الغياب
فيضيع في صمت الخاض
وفي احمرار الشمس
هذا السندباد⁵

يعلن الشاعر عن حالة القلق التي يعاني منها، فهو تائه من غير قرار، وهو هنا عكس طابع الأسطورة التي تقوم على رجوع السندباد البحري المنتصر بعد كل مغامرة بحرية، فالشاعر لا يشعر بالطمأنينة وبالارتياح نتيجة حالته القلقة وغير المستقرة، ولهذا فإن محاولاته في تحقيق انتصاراته الشخصية والتغلب على قلقه وشعوره بالوحدة والضياع هي محاولات فاشلة، لا تصل إلى مستوى النجاح الذي يحققه السندباد من خلال مغامراته البحرية.

لقد تمكن الشاعر من ترجمة حاله، والتعبير عن شعوره بالحزن والقلق والضياع، ولهذا فقد كانت الأسطورة التي وظفها توظيفا عكسيا، من خلال قلب الأدوار وعودة السندباد خالي الوفاض على غير عادته، وهو ما مكّنه من التعبير عن درامية حياته النفسية واليومية، ودرامية الوطن الذي ينتمي إليه والذي لم يستطع توفير الأمان والسلام الداخلي الذي يبحث عنه الشاعر أو كل مواطن ينتمي إلى هذا الوطن.

فالشاعر يلجأ إلى الأسطورة كي تكون عنوانا فنيا وداليا لتوصيل رسالته، فقد استوعب مضمون الأسطورة، وهو ما جعله يترجم الحالات الدرامية التي تحيط به، ويقف على تفاصيلها، وهو ما أعطى النص طابعا دراميا، يقوم على السرد الذي يعتمد على الأسلوب الحكائي، وهذا بتقديم التفاصيل والاهتمام بالجزئيات في تصوير حالته النفسية. ولهذا يظهر واضحا مدى أهمية توظيف الأسطورة في كونها تشكل نظاما خاصا داخل بنية الخطاب الشعري العربي المعاصر.

إن " السندباد " أسطورة لا تكاد تخلو من ديوان أي شاعر جزائري معاصر. ومن الشعراء الذين لم تفتهم أسطورة السندباد، الشاعر عاشور فني الذي حاول أن يلخص في قصيدة طويلة معاناة لا تنتهي وجروحا لا تندمل لخصها في عنوان " الليل "، والتي صورت حالات الحزن والاكسار، كما صورت حالات عاطفية وإنسانية تتمثل في حزن اليتامى والبسات الغائبة من وجوه المتعبين وانتشار الدموع، فقد:

مضى كل شيء
ولم يلتفت أي شيء إلى أي شيء
ولم يبق من مرح الخطوة القزحي
سوى ليل مقبرة وصباح كفن
(.... خطا شبح خطوة
ثم قدم أخرى إلى جهة في الظلام
فألقت به خلف سور الزمن...)⁶

يجمع الشاعر في قصيدته الطويلة حقلا دلاليا يجتمع في عنوانها الرئيسي "الليل" ويتفرع إلى حقول دلالية أخرى تترجمها ألفاظ (المقبرة، الكفن، الشبح، الظلام..). ولهذا فهو يبحث عن مخرج من هذا الليل الطويل، ولم يجد أمامه سوى التمسك بأمل التغيير والوصول إلى الضفة الأخرى، حيث الأمن والهروب من الكيد المحدث من جميع الجهات، ولهذا فهو يرى في السندباد مخرجا يخلصه من عذاب الليل الطويل الذي لا ينجلي:

كأنّي هنا منذ يوم القيامة
انتظر السندباد
وأبحث عن جهة الرياح
وعن مرفأ السفن⁷

على الرغم من إحساس الشاعر بطول ليله وكثرة معاناته؛ إلا أنه لم يستسلم، فقد ظلّ ينتظر ساعات الفرج ويبحث عن مخرج يوصله إلى برّ الأمان، ولهذا فهو ينتظر عودة "السندباد" بفارغ الصبر هذا "السندباد" الذي يأتي العودة والظهور مجدداً، فكل الجهات موصدة، وما انتظار الشاعر للسندباد غير وهمٍ يتعلّق به:

تعلّقت بالوهم
حتى انتهت آخر النّسمات إلى الليل⁸

إنّ السندباد الذي هو رمز الانتصار والعودة يأتي أن يمنح الشاعر أملا يتمسك به، الأمل الذي أصبح مجرد وهم يتعلّق به إلى آخر المطاف، ولهذا فإنّ الأسطورة تنعكس عن الشاعر فيحملها دلالات أخرى، فلم يعد السندباد ذلك الوفي الذي يتمسك بلم العودة والانتصار، إنّما أصبح - عند الشاعر - رمزا للهزيمة والخيانة:

وأول ما قادني للمدينة
وجه أطارده

كلّما لاح في أفق خاتي من جديد⁹

لقد وقع الشاعر في فخ المطاردة الواهمة، والبحث عن أفق جديد لا يكاد يظهر حتى يختفي، إنّه يبحث عن حلّ سحري وأسطوري لمعاناته ومعاناة وطنه. ولهذا فهو يلجأ إلى عالم الأحلام وإلى الشخصيات الأسطورية، علّها تكون مخلصته من الخوف والليل والوحدة، ولكنه سرعان ما يدرك أنّها أضغاث أحلام، وأن الخلاص الحقيقي هو التغيير الذي ينبع من أعماق القلب، ومن الرغبة الحقيقة في الانتقال من زمن إلى آخر ولهذا فهو يقرّ أن:

لا مكان لنا غير أعماقنا وطننا تتجاذبه
ولنا غيمة

سنحرّر في الأرض حبة رمل مجتحة
ثم ندخلها بابتسام شهيد¹⁰

إنّ " السندباد " عنده لا يحقّق الأحلام ولا يغيّر الواقع، لأنّ الواقع أكبر منه وأقوى منه، كما أنّه لا أحد يمنحه فرصة تحقيق الانتصارات، فهو يضطهد ويعتقل عوض أن يحترم ويجلّل، وهذا ما يظهر في ديوان آخر للشاعر، وفي قصيدة اللائي:

أحاول أن ألتقي حلي

فيثور المملأ

ويُعتقل السندباد

ويختتم بالأحمر القرمزي

على شفقي شهرزاد¹¹

ينبني النص على بنية أسطورية متناقضة، " فشهرزاد " الزاوية التي كانت تتفنن في بناء أحلام السندباد وفي صنع انتصاراته وعوداته المكلفة بالتجاح والانتصارات، تصبح موقعة به، بصنع هزائمه وخيالاته. لقد تمكن الشاعر من صنع واقع مختلف ومتناقض عن الواقع الأسطوري، فقد غيّر من ملاحظتها ومن أصولها فهو يحاول ترجمة الدراما الاجتماعية التي تثور ضدّ الأحلام وضدّ إرادة التغيير. إنّها دراما تترجمها أعماق الأسطورة المتحوّلة والمتشابكة في نظر الشاعر، والتي تحكمها سمات الرّفص والتوتر وهو ما يظهر من خلال تحويل مبدئها من غاية الانتصار إلى غاية الهزيمة والاستسلام، وكأنّ القدر محكوم على الشاعر أن يحيا على الهزيمة وعلى تقبّل الواقع المأساوي بكلّ ما يشكّله من صراع درامي.

لقد جعل الشاعر من الأسطورة عنصرا نصيا يحمل بؤرا دلالية كثيرة، فهو قد وعى مفهومها ولهذا أراد بناء مفهوم مناقض لها يكون أكثر عمقا وأكثر دلالة من معناها الأصلي، وهذا إيماننا منه بأنّ الدافع إلى استعمال الأسطورة في الشعر ليس هو مجرد معرفتها، ولكنه محاولة إعطاء القصيدة عمقا أكثر من عمقها الظاهر ونقل التجربة من مستواها الشخصي الذاتي، إلى مستوى إنساني جوهري، يكون أكثر قربا من أعماق الذات الإنسانية. من خلال ما تقدّم من نماذج شعرية نستنتج أنّ السندباد يرتبط دائما بالهروب من الواقع إلى واقع آخر، فالشاعر الجزائري يعي معاناة في وطنه ولهذا فهو يبحث دائما عن مرفأ جديد يرسو فيه ويخطّ فيه أحلامه،

2-أسطورة العنقاء:

إنّ معرفة الشاعر الجزائري بسحر الأسطورة ودورها الدلالي هو ما جعله يكتف من استخدامها في نصوصه الشعرية، فيلجأ إلى أكثر من أسطورة وهذا ما نجده عند الشاعر يوسف غليسي، الذي يقول:

الآن شيعت الحروف جنازتي...

ومضت تعانق جثتي...

وأنا أموت ولا أموت

كالسندباد

فأنا أموت، نعم

وكالعنقاء أبعث من رماد...¹²

لقد لجأ الشاعر إلى التكثيف الدلالي، عن طريق توظيف أسطوري السندباد والعنقاء، وهذا ليصور الجو الدرامي الذي يحكي آلامه وصراعاته من أجل البقاء، فما بين الموت والموت حياة متجددة، يرفض الشاعر التنازل عنها، فهو يظل ممسكا بخيط التجارة والأمل من أجل صنع حياة جديدة ومتجددة، ولهذا فقد استعان أولا بالسندباد الذي يعود إلى الحياة بعد كل الصراعات والمخاطر التي يواجهها في مغامراته البحرية، ثم استعان بالعنقاء ليؤكد إصراره على التمسك بالحياة وبالنهوض إثر كل سقوط، فالعنقاء رمز للحياة المتجددة وللخصوبة الدائمة.

إن الحياة التي يبحث عنها الشاعر هي حياة مليئة بالأمل، ومقاومة لكل المأساة، ولهذا فهو لا يكتفي بالتعبير المباشر، إنما قام بالتوظيف الأسطوري كي يهرب من خيبات الأمل ومن الموت المتكرر مع كل نسمة هواء، وهو ما أدخل النص في جو دلالي يحكي تفاصيل الموت وسبل البحث عن الحياة والولادة المتجددة مع كل موت وعلى العتب بعد الفناء، فقد لخص الشاعر تجربة الحياة عن طريق التوظيف الأسطوري وهو ما ساهم في توسيع فضاء القصيدة بانفتاحها على مؤثرات دلالية ترسم تفاصيل الواقع

وغير بعيد عن تصوير الواقع والتعبير عن سوداويته وعن الموت الذي يغزو الشوارع والطرق (العشرية السوداء)، نجد الشاعر عزالدين ميهوبي يرسم لوحة درامية ساهمت الرموز الأسطورية في إظهار ملامحها وتشكيل تفاصيلها الجزئية، وإدخال النص في جو سردي ينبنى على غرض الإخبار والوصف:

من ثقب الباب

يطلع غراب

عنقاء الموت تطلع على شجر اللبؤن...

فتتكسر الأجفان

لا غالب إلا الموت

لا شيء سوى الغفران

وصمت الليل فجيلة¹³

يوظف النص الشعري بدلالة أساسية هي الموت والعذاب، وهو ما يظهر من أول صورة بيانية لتسلل الغراب من ثقب الباب، وهذا كناية عن الشؤم الذي يحيط من كل صوب حتى لا يمكن الهروب منه، فالغراب طائر تحيط به مجموعة من التصورات السلبية التي التصقت به منذ القديم، فهو طائر يبعث على الخوف من الموت وعلى التثاؤم والقال السيئ فقد كانت العرب تظهر في كثير من كلامها كرهها للغراب مثل " صرّ عليه رجل غراب " أي ضاق عليه الأمر وعسرت عليه الحياة، و" غراب أبقع " أي غراب خبيث، بل كانت العرب تتشاءم من رؤيته مطلقة عليه اسم " غراب البين " وتربط رؤيته بالبؤس والهلاك والشقاء.

إنّ دلالة الغراب في النص دلالة سلبية، وقد ازدادت سلبيتها بالاستعانة بأسطورة العنقاء التي حملت في النص دلالة مغايرة لأصلها فالعنقاء طائر خرافي يرمز إلى الحياة المتجددة بعد كلّ موت، وإلى الخلود والاستمرار في الحياة، لكن توظيفه في النص جاء توظيفا عكسيا، فالشاعر غير محتوي الأسطورة، وجعلها تحمل دلالة الموت والانتحار ف(لا غالب إلا الموت)، وإلا الضمت الذي يصنع فجائعه، فيتحوّل كلّ شيء إلى حزن ودمار.

يصنع الشاعر دراما شعرية عميقة، بفضل استعانه بالأسطورة وإعطائها أبعادا جديدة، وهو ما يسمح باحتواء شحنات عاطفية ودلالية كثيفة، ويرسم أبعاد الواقع المأساوي الذي يعيش فيه والذي يسيطر عليه الإحساس بالظلم والقهر والخوف من الموت.

وهذه الصورة المحتدمة والمتشابكة والمملوءة بالصراعات تتكرر عند شعراء آخرين، الذين لجؤوا بدورهم إلى توظيف أسطورة العنقاء، التي تتكرر في صيغ مختلفة، فهذا الشاعر نور الدين درويش يستحضرها قائلا:

لست أخشاك

عجل أيا قاتلي

أطلق النار

أقرأ على جسدي آية البطش

ولكنني صرت عنقاء....

أولد من رحم الموت¹⁴

يحاول الشاعر أن يتخطى الموت المحدث به، وأن يواجهه بكلّ شجاعة، فهو لم يعد إنسانا عاديا إنما هو عنقاء تولد مع كلّ موت، إنه يتناص مع أسطورة العنقاء وهو ما يفتح النص على آفاق تأويلية كثيفة، ويجعله صدى لمعاني متجددة عن طريق الصورة الشعرية التي ينتجها، والتي وُحِدَت بين الأجواء المتناقضة الشاعر/العنقاء وجعلت منها حقيقة واحدة على الرغم من الاختلاف القائم بينها.

إن رغبة الشاعر في الانتصار والمقاومة والنهوض إثر كلّ سقوط أو البعث بعد كلّ موت، هو ما جعله يستعير أسطورة العنقاء وصنع صورة شعرية تقوم على إعادة بناء عالم جديد يقوم على أنقاض العالم القديم (الواقع اليومي)، وهذا إيمان منه بأنّ الصورة الشعرية " توحد بين الأجزاء المتناقضة، وبين الجزء الكلّ، إنها شبكة ممتدة الخيوط تربط بين نقاط كثيرة وهي تنفذ إلى أعماق الأشياء فتظهرها على حقيقتها.

حاول الشاعر إعادة بناء علاقات نصية جديدة، تقوم على استغلال ما يوفّره الفضاء الأسطوري من قوة إيجابية وقدرة على خلق المعنى وخلخلة المألوف، والارتفاع بالأسطورة إلى خلق الجوّ الدرامي، الذي يقوم على توفر عنصري التقابل والصراع، فقد استطاع استثمار الموروث الأسطوري (أسطورة العنقاء) للتعبير عن تمسكه بالحياة إثر كلّ موت يقابله، إنه يواجه الموت بالحياة ولهذا فهو يقهر كلّ القوى السلبية التي تعمل على تحطيم عالمه الجميل، وهو ما يبيّن أنّ التفاعل الأسطوري يخلق إلهاما وإحياء من خلال التناغم التصي والتفاعل الذي يجتهد الشاعر في إظهاره، وهذا من أجل التعبير عن عمق تجاربه الشعرية، وتصوير الدراما المعقدة والمتشابكة التي تحيط به وبالعالم، كما أنّ الأسطورة

تتقل مستوى الألم الشخصي للشاعر إلى المستوى الإنساني، وهو ما يظهر علاقة الشاعر بتراث أمته الحضاري، والتراث الإنساني بعامته.

إنّ لجوء الشاعر إلى أسطورة العنقاء التي تلخص الموت والانبعاث، هو معادل موضوعي لمعاناته في وطنه ومواجهته للموت دون خوف، لأنه يدرك استمرار الحياة بعد موته، كما يدرك أنّ وطنه لا يمكن أن يستسلم لآلة البطش والتآمر، ولهذا فقد وجد الشاعر في الأسطورة ملاذاً له يحتملها همومه وهموم وطنه، وتطلعاته لغد أفضل تكون فيه الحياة والآمال هي الغاية الأولى والوحيدة التي يتطلع إليها الشاعر وكلّ من يعيش في وطنه.

3- أساطير شخصيات تاريخية وأدبية: لم يقتصر الشاعر الجزائري المعاصر على توظيف مختلف الأساطير القديمة (اليونانية، البابلية...) إنما قام باستدعاء الشخصيات التاريخية والأدبية (التراثية)، خاصة تلك التي حظيت بأهمية تاريخية نظراً للدور الذي قامت به. فبعض الشخصيات التاريخية والأدبية يمكن أن تصبح شخصيات أسطورية فشخصية الحلاج وسيف بن ذي يزن، والحسين بن علي، وعنزة بن شداد وامرئ القيس... هي شخصيات تاريخية لكن بعدها الإنساني ومدى تأثيرها في الفكر والأدب العربي لا يزال يفعل فعله بشكل أسطوري يفوق حدّ التخيل فأثّرت على الأدب وعلى الخطاب الشعري المعاصر نظراً لرؤيتها الجمالية والفنية، وإنّ "من الملحوظ أنّ الشخصيات التي حظيت بالقدر الأعظم من اهتمام شعرائنا المعاصرين هي تلك الشخصيات التي ارتبطت بقضايا معيّنة، وأصبحت في التراث رمزا لتلك القضايا وعنوانا لها."¹⁵

إنّ مزج الأسطورة بالواقع وتحويل التاريخ إلى ما يشبه أسطورة، هو ما يجعل الشخصيات التاريخية تتحوّل إلى أبطال أسطوريين لا تختلف عن غيرها من الشخصيات الأسطورية الحقيقية، وهذا ما جعل الشاعر الجزائري المعاصر يميل إلى استحضار الشخصيات التاريخية ذات الوزن السياسي والأدبي، وتوظيفها في القصائد الشعرية، وهو ما يعطي النصوص لمحة أسطورية إضافة إلى الطابع الدرامي الذي تتسم به، هذا لأنّ الشاعر يسعى إلى التعبير عن حالاته النفسية وحالات غيره، وعن الأوضاع السياسية المضطربة وغير المستقرة، ولهذا فإنه يجد في استعارة الشخصيات التاريخية مجالا للهروب من المضايقات والمتابعات السياسية، ومجالاً للتعبير الحرّ والأمين عن حال الشعوب المضطهدة، يقول الشاعر مصطفى الغامري:

قتلوك يا سيف "الحسين" ويا أصالة "ذي الفقار"

وتواتوا حقدا عليك.. تلفعوا شيم التار

قتلوك يا رمز الشهادة في مسافات الفخار

أنت الخلود... وقاتلوك الليل بصلبه النهار.¹⁶

يستحضر الشاعر شخصية "الحسين بن علي بن أبي طالب" حفيد النبي صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة الزهراء، لقب بسيّد شباب الجثّة، وقد تعرّف للقتل والغدر من طرف الأمويين لأنّه لم يعترف بحقهم في الخلافة، ومنذ ذلك اليوم والمسلمون يسترجعون ذكرى موته غدرا في كربلاء، ويعتبرون ذلك نقطة تحوّل المسار السياسي للدولة العربية، إنّ استحضار مقتل الحسين من طرف الشاعر هو استحضار لحقّ الشعوب العربية المهضوم والمسلوب قوة وغدرا، ولهذا فالشاعر يستحضر حال الشعوب العربية وحال الشعب الجزائري من خلال حادثة كربلاء، إنّه تناص للواقع الزاهر

مع الماضي، فشخصية الحسين تمثل بالنسبة للشاعر نقطة تحول عميق ونقطة بداية الصراع الأبدي بين الخير والشر (على مستوى الشعوب العربية والإسلامية) ولهذا فهو يدعو إلى أخذ العبر حتى لا تتكرر كربلاء أخرى، إن خيبات الأمل والظلم والمهانة هي ما يحاول الشاعر تجاوزها ولهذا فهو يهرب من سلطة الواقع، ويعلن رفضه المباشر له عن طريق التزمز الأسطوري المكثف والموحي والممثل في شخصية الحسين.

لقد ساهمت الشخصيات الأسطورية في بناء القصيدة المعاصرة، لأنها ملمح في ووسيط بين الشاعر والمتلقي، نظرا لما تحمله الشخصيات التاريخية والأدبية والفكرية من دلالات تسهم في صوغ النسيج الشعري ومحالة إعطاء عمق كبير للقصيدة، ونقلها من المستوى الذاتي إلى المستوى الغيري، وهذا انطلاقا مما تحمله الشخصية التاريخية من دلالات ومن وزن كبير، ولهذا فن بين الشخصيات التاريخية التي لجأ إليها الشاعر الجزائري المعاصر شخصية الشنفرى وتأبط شرا، هذين الشاعرين الضلعوكين اللذين تمزّد على سلطة القبيلة وخرجا عن قوانينها بحثا عن الحرية والانطلاق نحو الآفاق البعيدة، حيث لا يتم الامتثال والانصياع للأوامر والعادات والتقاليد التي تفرضها الجماعة، إنّا تكون الحياة عبارة عن خوض للضباب وكسر للحدود والقيود.

ولهذا فقد قام الشاعر عثمان لوصيف باستحضار شخصيتي الشاعرين " الشنفرى " و "تأبط شرا " لمحاولة الحث على التمرد وعلى رفض الواقع والأوجاع المتكررة، من أجل الانطلاق إلى غد أفضل يحوي جميل الآمال:

أيها الطفل... يا طفلي الزافض المتمرد

أيها الأشعث الأغبر المتمرد

لست متي إذن...

لست مني إذا لم تحوّض مع الشنفرى وتأبط شرا

ولم تسربل عجاجا وجرا

لست مني إذا نمت بين الرفوف

ولم تتقيأ رقاهم

وما أودعوا فيكم حكمة

فتبدّدها في الأعاصير ... أو تبدّد¹⁷

إنّ الطريق نحو التغيير لا يراه الشاعر إلا عبر التمرد وعبر سلوك حكمة الصعاليك، فذلك ما سيمكّنه من سحق الأوجاع ومن فرض التغيير الذي لن يكون إلا بالعزيمة والإرادة القويّة، فليس هناك مجال للرجوع إلى الخلف أو الخوف:

أيها البدويّ المعربد

يا سليل الصعاليك،

يا سيّدي في الغوى والتجرد

زلزل الأرض من تحت أقدامهم

زلزل الأرض من تحت أصنامهم

دكّ... دكّ المدائن لا تتردّد

واحتضن لعنتي

آه واضرب بها التيه في كلّ فدد

أيها الطفل يا صودقي في الخراب وأسطورتي في التجدد¹⁸

يستعين الشاعر بشخصية البدوي الضعوك كي يوجه خطابه إلى بني شعبه، فيدعوهم إلى الاقتداء بسيرة الصعاليك المتمردين والرافضين للقيود التي تحطم أحلامهم وتسلب حرياتهم، ولهذا جاءت أفعال الأمر المتتالية والمتكررة لتؤكد ذلك الهيجان والثورة (زلزل 2x، دكّ 2x، لا تتردد، اضرب) فكلها أفعال تدعو إلى التمرد على الواقع والبحث عن غد أفضل يكون الأطفال هم من يحملون المشعل، لأنّ الكبار في نظر الشاعر لا أمل في التأثير عليهم لأنهم قد رضوا بحالهم وحال وطنهم وأمتهم.

إنّ الشاعر يصنع رؤية جالية بدت من خلال صنع التداخل ما بين الماضي والحاضر، ومحاولة خلق بديل جديد، أكثر إشراقا وجالا عن طريق مواجهة الواقع والسعي إلى التغيير، هذا التغيير الذي يجعل من ثورة الصعاليك أنموذجا يُحتذى به، بعد أن أضفى الشاعر عليهم صفة الأسطورية.

إنّ تمرد الشاعر يظهر واضح، فهو يركب موجة التغيير من أجل الانتصار على المأساة اليومية التي يحياها هو وأفراد وطنه، ولهذا فإنه " ينفجر وينفجر منتصرا لقوى الحياة التي تقوّض دعائمها، وانهارت في أمة تعيش الفاجعة".¹⁹ فالشعر يظهر تواقا إلى الرؤى " يغذي النار التي تستهلكه، وإن لشعره ما لروحه من جبال العاصفة المتوتر، المدوّي، أو روعة جيشان كوني يستنزف نفسه في ومضات خاطفة".²⁰ ولهذا فإنه يعي جيّدا " طبيعة الصوت الذي يخاطبه في الظلام والدور المنوط به، وما ينبغي للروح أن تفعله".²¹ كلّ هذا من أجل أن يترجم معاناته ويصنع أسطوريته التي تنبني على مجموعة من الأساطير الخالدة لهذا فهو كطائر الفينيقي حرق ذاته الفانية ليخرج من رمادها ذاته الخالدة، أو هو كبرومثيوس، يقول: لا... ويتلقى بعنفوان جبال الصاعقة".²²

إنّ الأسطورة التي يلجأ إليها الشاعر إنّما تنطلق من أعماق نفسه كي تنير نصوصه الشعرية، فأسطورة الذات هي المنبع الأول لكلّ الأساطير، لأنها تحمل صدق العاطفة وقوة الإحساس.

ومن الشخصيات الأدبية التي اعتبرها الشعراء رمزا أسطوريا، شخصية الشاعر "المتنبي"، تلك الشخصية التي أثارت جدلا كبيرا في زمانها، لأنّ المتنبي - شاعر سيف الدولة الحمداني - كان شاعرا ثائرا وقلقا، يصارع من أجل البقاء ومن أجل إثبات نفسه والحفاظ على عروبه، لقد حيكت حول المتنبي مؤامرات كثيرة من أجل الإيقاع به وكان في كلّ مرّة يواجهها بذكائه الحاد وبلسانه اللاذع ولهذا الأسباب كان مرفوضا في مجتمعه وحاشية سيف الدولة.

لقد اتخذ الشعراء من المتنبي رمزا للصراع والهروب من قيود الدولة، وفي هذا يقول الشاعر أحمد حمدي:

أخطأ المتنبي حين اشتكى

وشدّ بالقصيد ثمّ بكى

كان يمكن أن يتحرّر

أو كان يمكن أن يقتل الزّمن المستبد²³

يتخذ الشاعر شخصية المتنبي للتعبير عن همومه الشخصية وهموم وطنه، وكذلك تهميشه في الواقع، ولهذا فقد تمكن من التصوير الدرامي، ومن حياكة جو سردي يصور من خلاله عمق المأساة فجعل المتنبي محوراً أساسياً وحمله كل الذنوب، لقد كان للواقع أن يكون أفضل مما هو عليه لو أن المواطن - أو المتنبي الذي ينطق الشاعر باسمه - قد قال كلمته أول مرة ولم يستسلم للبكاء، فمصر الحزينة هي البحث عنها، وهي مجابهة كل عناصر الاستبداد.

لقد استعار الشاعر صوت المتنبي، ولهذا فهو يتكلم باسمه هروبا من قيود السلطة التي لا تدع مجالاً للحرية والتعبير، فالمتنبي هو رمز للمثقف المضطهد الذي يسمع صوته إذا يواجه بسياسة التكيم والتهميش وحتى الاستبداد. إن شخصية المتنبي تمثل قضية سياسية في غاية التعقيد، ولهذا فقد راح الشعراء - في جميع الأقطار العربية - يحملونها طاقات دلالية كثيفة، وهذا هروبا من سلطة الرقابة السياسية.

لقد جعل الشاعر - أحمد حمدي - شخصية المتنبي بمثابة قناع يختفي وراءه ويتحدث بلسانه، لأنه شخصية أدبية وتاريخية محمّدة في تاريخ الأدب العربي، فقد ظهر في فترة الدويلات والانقسامات والصراع على السلطة وإعطاء الحق لغير صاحبه، ولهذا فقد جاء القناع الشعري المحمل بدلالات أسطورية، أداة فنية محمّدة من مجموع وسائل الأداء الشعري، لأنه قد ساهم في تحقيق واقع شعري تحي فيه الحدود بين الحلم والواقع على الصعيد المضموني، وتحمي فيه الحدود بين الشعر والسرود على الصعيد الشكلي، وهذا ما يؤدي إلى اقتراب السرد من الشعر والشعر من السرد إلى حد كبير.

الخاتمة:

- وما سبق، يتبين بعض خصائص وملامح الأسطورة في القصيدة الجزائرية المعاصرة التي تعامل معها الشعراء في جانبها الدلالي والإيحائي، ساعين من خلالها إلى ترجمة الدراما اليومية ودراما الوطن منطلقين من فكرة كون الأسطورة في الشعر العربي الحديث من أجراً للمواقف الثورية التي استعملها الشعراء.
- استعان الشاعر الجزائري المعاصر بالأسطورة للتعبير عن معاناته اليومية وعن الإخفاق اليومي التي يتعرض له.
- كانت أسطورة السندباد من أهم الأساطير التي استوحاها الشاعر الجزائري المعاصر، كونها ترمز إلى المغامرة والإبحار دوماً نحو الأمام، فالشاعر الجزائري قد مرّ بتجارب إخفاق كبيرة مما دفعه إلى النهوض إثر كل سقوط، والبحث عن المرافئ الجديدة.
- استعان الشاعر الجزائري بشخصيات تاريخية وأدبية كشخصية المتنبي التي كانت مرجعاً للكثير من الشعراء العرب، كونه رمزاً للعروبة الضائعة، ولهذا تواترت كثيراً شخصيته في النصوص الشعرية إضافة إلى شخصيات أخرى اتسمت بالأبعاد الأسطورية.
- اعتمد الشاعر على الأسطورة للتعبير عن أوضاع الإنسان العربي في هذا العصر المضطرب سياسياً واجتماعياً.

هوامش:

- ¹ عبد القادر فيدوح، 1994، الرؤيا والتأويل، مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر، ص113.
- ² عثمان لوصيف، 1988، أعراس الملح، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، ص15.
- ³ المصدر نفسه، ص27.
- ⁴ إيتفينك، 1988، الأسطورة، تر: جعفر صادق الخليلي، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1988، ص17.
- ⁵ أحمد حمدي، دت، انفجارات، دط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص29.
- ⁶ عاشور فتي، 2007، زهرة الدنيا، دط، دار القصة للنشر، الجزائر، ص64.
- ⁷ المصدر نفسه، ص65.
- ⁸ المصدر نفسه، ص67.
- ⁹ المصدر نفسه، ص69.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ص ن
- ¹¹ عاشور فني، 2004، الربيع الذي جاء قبل الألوان، اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر العاصمة، الجزائر، ص50.
- ¹² يوسف وغليسي، 1995، أوجاع صنفاه في مواسم الإعصار، ط1، دار إبداع، الجزائر، ص33.
- ¹³ عز الدين ميهوي، 1997، كاليفولا يرسم غرنیکا الرئيس، الجزائر، منشورات أصالة، ص20.
- ¹⁴ نور الدين درويش، مسافات، مطبعة منتوري، قسنطينة، ط2، 2002، ص60، 61.
- ¹⁵ علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، 2006، ص138.
- ¹⁶ مصطفى الغامري، عرس في مآثم الحجاج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، الجزائر، 1982، ص95.
- ¹⁷ عثمان لوصيف، براءة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، دط، دت، ص18.
- ¹⁸ المصدر السابق، ص19.
- ¹⁹ من مقدّمة الديوان (المصدر السابق) بقلم د/عبد الكريم الشريف، ص3.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص4.
- ²¹ المصدر نفسه، ص6.
- ²² المصدر نفسه، ص5.
- ²³ أحمد حمدي، أشهد أنني رأيت، دار الحكمة، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2000، ص23.

قائمة المراجع:

- 1- أحمد حمدي، 2000، أشهد أنني رأيت، دار الحكمة، دط، الجزائر العاصمة، الجزائر.
- 2- إيتفينك، 1988، الأسطورة، تر: جعفر صادق الخليلي، ط1، منشورات عويدات، بيروت، 1988.
- 3- عبد القادر فيدوح، 1994، الرؤيا والتأويل، مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، الجزائر.
- 4- عاشور فتي، 2007، زهرة الدنيا، دط، دار القصة للنشر، الجزائر.
- 5- عاشور فني، 2004، الربيع الذي جاء قبل الألوان، اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، الجزائر العاصمة، الجزائر.

- 6- عثمان لوصيف، 1988، أعراس الملح، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 7- عثمان لوصيف، دت، براءة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، دط، الجزائر العاصمة. يوسف وغليسي، 1995، أوجاع صفصافه في مواسم الإعصار، ط1، دار إبداع، الجزائر.
- 8- عز الدين ميهوبي، 1997، كاليغولا يرسم غرنیکا الرئيس، منشورات أصالة، الجزائر.
- 9- علي عشري زايد، 2006، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دط، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر.
- 10- مصطفى الغامري، 1982، عرس في مأتم الحجاج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، دط، الجزائر العاصمة، الجزائر.
- 11- نور الدين درويش، 2002، مسافات، مطبعة منشوري، ط2، قسنطينة، الجزائر.